رسالة الإسلام وأثرها في التغيير الحضاري تاريخاً وواقعاً

أ.د. محمد دباغ

جامعة أدرار

مقدمة:

لقد جاءت النصوص الشرعية والشواهد التاريخية والواقعية مبينة سموّ مبادئ الاسم وتكامل تشريعات وصلاحية نظمه[1] وهذا ما يبينه قوله تعالى <<الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا>>[2] وقوله صلى الله عليه وسلم << تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي>>[3]

وبناء على هذا كانت رسالة الإسلام صالحة لقيادة البشرية في كل زمان ومكان وبيان ذلك في المحاور الآتية:

المحور الأول: عوامل سموّ والتكامل في رسالة الإسلام

المحور الثاني نصوص ونماذج تاريخية تتعلق برسالة الإسلام

المحور الثالث: رسالة الإسلام وواقع المسلمين

المحور الرابع: آفاق مستقبلية وحلول

1- **عوامل السموّ والتكامل في رسالة الإسلام** : اتسم المنهج الإسلامي في كافة تطبيقاته بخصائص متميزة وهي:

- الربانية
- الإنسانية
- العالمية
- الوسيطة
- الجمع بين الثبات والتطور (المرونة)

وبناء على هذه الخصائص التي ظهر أثرها جلياً في مجال العقيدة والتشريع والفكر والأخلاق...استطاعت الدعوة الإسلامية من خلالها أن تتحدى مختلف العوائق وتدحض جميع الشبهات وتبرهن على قدرتها على مسايرة الأحداث والوقائع[4].

---

[1] القرضاوي، شريعة الإسلام

[2] المائدة :02

[3] رواه مسلم عن جابر بن عبد الله وهو صحيح

[4] البوطي فقه السيرة: 16،88

وقد عبرّ شاعر المديح النبوي الإمام البوصيري عن هذه الخصائص بقوله

آيات حق من الرحمن محدثة

قديمة صفة الموصوف بالقدم

لم تقترن بزمان وهي تخبرنا

عن المعاد وعن عاد وعن إرم

دامت لدينا ففاقت كل معجزة

من النبيئين إذ جاءت ولم تدم

محكمات فما تبقين من شبه

لذي شقاق ولا تبغين من حكم

ما حوربت قط إلا عاد من حرب

أعدى الأعادي اليها ملقى السلم

ردت بلاغتها دعوى معارضها

رد الغيور يد الجاني عن الحُرَم[1]

وفيما يلي نخلص إلى بيان أهم عوامل السموّ والتكامل في دعوة الاسلام ورسالته:

1- اتصافها بخاصية الربانية جعل الانقياد لها انقيادا تلقائياً يجسد قوله تعالى << قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ>>[2]

2- إن شمول التشريع الإسلامي لمصالح العباد في مختلف المجالات وكذا تكامل هذا التشريع وواقعيتة ومسايرته لمختلف الوقائع والأحداث يؤكد خاصية الربانية من جهة ويدعو إلى التمسك به من جهة أخرى وهذا ما يؤيده كون هذه الأمة هي أمة الشهادة على الناس مصداقاً لقوله تعالى<< وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ>>[3].

فأمة الشهادة على الناس ينبغي أن تكون مبادؤها ونظمها قادرة على حل مشاكل الأمم واستيعاب قضاياها.

3- تضمن النصوص الشرعية لمختلف المبادئ والمناهج الاستدلالية وأساليب الإقناع وإقامة الحجة والبرهان والابتعاد عن التقليد الأعمى وهذا ما يدل عليه قوله تعالى << قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ>>[4].

---

[1] ميمية البصيري قصيدة في المديح النبوي:03

[2] الأنعام:162

[3] البقرة:143

[4] البقرة:111

وقوله تعالى << وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ>>[1].

4- إن أخذ السلف الصالح بمبادئ الإسلام وقواعده، جعل رسالته تحقق نجاحاً وتميزا في مختلف المجالات، ويدل على ذلك أن التمسك بهذه المبادئ كوّن الشخصية القوية المتكاملة التي جعلت المسؤول عن الرعية يقدر حجم مسؤوليته كما أثر عن أبي بكر و عمر رضي الله عنهما في مواقف مختلفة، كما جعلت القائم بتبليغ رسالة الإسلام يبلغها على أحسن ما يرام كما في قصة ربعي بن عامر المشهورة

5- وعد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بنصرة هذا الدين في نصوص كثيرة منها :

أ-قوله تعالى <<وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا>>[2].

ب-قوله صلى الله عليه وسلم << لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس>>[3].

ثانياً: نصوص ونماذج تاريخية:

1- فعله صلى الله عليه وسلم في الهجرة حيث اتخذ جميع وسائل الحيطة والحذر أخذا بالأسباب تعليما للدعاة من بعده[4].

2- فعله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر حيث ظهرت فيها مبادئ وأحكام جليلة منها الأخذ بالخبرة الحربية والاستعانة بالدعاء، وتصرفه صلى الله عليه وسلم في شأن الأسرى [5].

3- فعل أبي بكر الصديق رضي الله في قتال مانعي الزكاة وقتال المرتدين حيث ظهرت قوة شخصيتة وحكمته وحسن استنباطه من النصوص.[6]

4- ثورة التحرير الجزائرية حيث وقف المجاهدون بكل ثقة في الله سبحانه وتعالى وحسن التوكل عليه حتى استطاعوا ردّ أكبر قوة عاتية في العصر الحديث[7].

---

[1] لقمان:21

[2] النور:55

[3] رواه الشيخان

[4] البوطي: فقه السيرة 129.

[5] م ن: 165.

[6] القرضاوي المبشرات بانتصار الإسلام 50.

[7] ينظر بيان أول نوفمبر1954.

ثالثاً: رسالة الإسلام وواقع المسلمين:

لقد مثل المسلمون عبر عصور تاريخهم الأولى أمة الشهادة على الناس حيث أسسوا حضارة لا تزال مختلف الأمم مدينة لمبادئها ونظمها ولكنهم لما فرطوا في وحدتهم التي هي الضامن الأساس لعزتهم وتقدمهم صاروا موزعين ذات اليمين وذات الشمال وهذا ما حذر منه صلى الله عليه وسلم في قوله << يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله، قال بل أنتم كثير ولكنكم، غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن، قالوا وما الوهن يا رسول الله قال حب الدنيا وكراهية الموت>>[1]

ويمكن تلخيص مظاهر ضعف المسلمين فيما يلي:

1- التقصير الواضح في الأخذ بمبادئ دينهم وأحكامه وتوجيهاته السامية.

2- عدم تجسيد الوحدة والتضامن بشكل يحقق التعاون والتكامل الحسي والمعنوي

3- التبعية للغير بشكل أدى إلى التخلف والقصور في مجالات عدة مما أورث حالة نفسية انهزامية ولدت نوعاً من الاستسلام لهذه الوضعية وعدم التفكير في الخروج منها في الغالب.

4- فقدان الثقة بالنفس نتيجة تراكمات وأخطاء تاريخية وواقعية استغلت لتبرير مختلف التأثيرات الإعلامية والمغالطات الإيديولوجية، ومن ذلك مثلاً الانسياق وراء مغالطة الحكم على كافة الأمة بتحمل خطإ وقع فيه أحد أفرادها. أو بعضهم.[2]

5- الفهم السلبي لبعض المبادئ الشرعية كالتوكل والقدر والزهد وهذا ما يدّل عليه لسان حال بعضهم عندما يرى ما عليه الغربيون من تقدم<< لهم الدنيا ولنا الآخرة>>

رابعاً: آفاق مستقبلية وحلول:

1- الأفاق المستقبلية.

انطلاقاً من وعد الله سبحانه وتعالى بنصرة المسلمين وبناء على بشائر النصر والتمكين الوارد في نصوص القرآن والسنة ندرك دون شك أن الله سبحانه وتعالى سيحقق للأمة العزة والكرامة والتمكين ومن البشائر التي نذكرها هنا:

أ-قوله تعالى << وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ>>[3].

ب-قوله تعالى <<وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ>>[4].

ج- قوله صلى الله عليه وسلم <<إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها>>[1].

---

[1] رواه أبو داود والنسائي

[2] وذلك كنسبة بعض التصرفات الصادرة عن بعض الجهلة والمتطرفين إلى الإسلام مع أن الإسلام بسماحته.وحكمته بريء من ذلك.

[3] آل عمران 139.

[4] رواه أبو داود والحاكم وصححه.

د- قوة رسالة الإسلام في ذاتها لأنها رسالة ربانية منزلة من عند من يعلم السر وأخفى.

هـ- انتشار الوعي الإسلامي والثقافة الشرعية عن طريق المؤتمرات والمنشورات ووسائل الاتصال المختلفة وهذا ما يكفل دحض الشبهات المثارة ضد رسالة الإسلام ودعوته.

2- الحلول والاقتراحات:

أ- ضرورة انطلاق الأمة في عملية التغيير من مبادئ دينها وأحكامه.[2]

ب-الأخذ بأسباب القوة العلمية والثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية.[3]

ج- تعزيز مبدأ الأخوة والتضامن والوحدة.[4]

د- التخلص من عقدة الانبهار بالغير وحسن التوكل على الله ثم الاعتماد على النفس باستثمار الطاقات الكامنة والقدرات المتوفرة وإدراك أن العزة للإسلام لقوله تعالى<< وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ>>[5].

الخاتمة:

نخلص في نهاية هذا البحث إلى أن الأمة الإسلامية هي أمة السيادة و الريادة للعالم كله وقد تحقق لها ذلك بالفعل زمناً معتبراً من تاريخها غير ان تفريطها في بعض مبادئها وتضافر مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية والمؤثرة في ضعف الأمم وتقدمها وفق سنن التغيير الكونية، جعلها تتراجع عن المستوى المطلوب منها.

غير أن وعد الله بنصرة دينه ومن يحمل رسالته لا يزال قائماً وسيتحقق لها متى حققت شروط النصر والتمكين والله متمم نوره ولوكره الكافرون.

---

[1] الأنبياء 105.

[2] محمد دباغ، مقومات الرسالة الحضارية للأمة الإسلامية، مقال بالملتقى الدولي:الإسلام والمسلمون في القرن الخامس عشر، الواقع والآفاق، باتنة ماي 2004.

[3] القرضاوي المبشرات 103.

[4] م ن: 103.

[5] آل عمران: 139.